أ. د. عمار ساسي
جامعة سعد دحلب - البليدة

التحليل الإفرادي للخطاب الشعري
قصيدة (فلسطين على الصليب)
لمفدي زكرياء نموذجا

الملخص:

هل الشعر إلا كلمات فجرتها أزمات...؟

وهل الشعر إلا كلام أنطقه كلام...؟

وهل القصيدة إلا وردة مشوكة تنبت من بقايا الحيوان لتستقر لحظة ثم تستوي في تمام الجمال...؟؟

وهل الجمال إلا رسالة الحق في الحياة؟... من رحم هذه الرؤية بزغت القصيدة عند شاعرنا الكبير مفدي زكرياء، ومن على أعواد منبرها فجر قوافيها بقوله:

(رسالة الشعر في الدنيا مقدسة لولا النبوءة كان الشعر قرآنا)

وفي هذا السياق تأتي المداخلة لتتناول رؤية علمية لغوية تحليلا إفراديا لقصيدة "فلسطين على الصليب" للشاعر مفدي زكرياء وستقف على المحطات التالية:

- المقدمة
- المفردة والدلالة في منهج البحث المتبع (الوصفي الوظيفي).
- النموذج التطبيقي والوصفة العامة.
- التحليل الإفرادي لخطاب القصيدة.
- الخاتمة والنتائج.

دراسة في التحليل الافرادي للخطاب الشعري
نموذج - مفدي زكريا - الجزائر

مقدمة:

وهل الشعر إلا انسجام أصوات فتشكيل كلمات لمعاني الموجودات؟

وهل الشعر إلا علم إتقان وضع الدال على المدلول على حد لغة اللسانيات الحديثة؟

وهل الشعر إلا فن يجسد رسم الكلمة على معناها، كالشجرة في الصورة والحياة فالصورة لفظة والحياة معنى.

وهل الشعر إلا كلمات التي هي أوضاع اللغات ورموز موزونة على الموجودات؟؟

وهل الشعر إلا كلمات فجرتها أزمات؟

وهل الشعر إلا كلمات تنبجس منها الحياة كما ينبجس الماء من الحجرات؟

وهل الشعر إلا كلمات ينطلق منها الموت كما ينطلق السهم من الرمية فيصيب منها المقتل؟

وهل الكلمات إلا أوعية للمعاني وخادمة لها كما يحدد ذلك إمام البلاغة عبد القادر الجرجاني؟

وربما لما كانت الكلمة هي اللغة وهي الإنسانية وهي الحياة وهي روح الله المودعة في خليفته في الأر ض، ربطها الله بالشجرة تشبيها وإجلالا قال تعالي: (**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء...**)[1] فالكلمة، كالشجرة والشجرة تساوي ماذا؟... ألا تساوي الحياة كلها؟

–وهل الشعر إلا كلمة ...؟؟؟

–وهل الوجود إلا كلمة...؟؟؟

–وهل الوحي إلا كلمة.؟؟ وهل الحياة إلا كلمة؟؟...وهل مايعيش من أجله الإنسان إلا كلمة؟؟. وهل ما يموت من أجله الإنسان إلا كلمة؟؟.

وهل الإيمان إلا كلمة ؟؟ وهل الكفر إلا كلمة؟؟ قال تعالى: (**وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا**)[2]

وهل الكلمة إلا مدامع علقت بأهداب الحياة؟

وهل الكلمة إلا دم تفجر من كلام الكائنات ؟ لذلك فالكلمة تبقى حاملا لسر في الوجود يظل شغل الإنسان الذي لا ينتهي ولغزه الذي لا يفك، قال تعالى: (إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)[3].

الكلمة والشجرة

- كيف تشكل الكلمة؟؟ المقاربة.
- ما الكلمة؟؟ ما الوظيفة والدور؟؟.

ولحكمة هو يعلمها جعل الكلمة أكبر رمز لحياة الإنسان مولودا... ولحكمة ما جعل الكلمة فاصلا بين الموت والحياة...

وبالكلمة التقت الأرض بالسماء.
وبالكلمة ظهرت المعجزات في الخلق وأيد الله بها الرسل والرسالات.
وبالكلمة جاء نصر الله للمستضعفين.
وبالكلمة حاق العذاب ونزل العقاب على المستكبرين.
وبالكلمة أنزل رحمته على عباده.
وبالكلمة يعز الله من يشاء ويذل من يشاء.
وبالكلمة الله قاهرا فوق عباده وهو الحكيم العليم.
وبالكلمة تنتهي الدنيا ويفنى من عليها ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.
وبالكلمة يأتي أمر الله وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون.
وبالكلمة يفصل الله بين عباده يوم القيامة، فريق في الجنة وفريق في السعير، وبالكلمة كتب الله: لأغلبن أنا ورسلي.
وبالكلمة جعل الله كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.
فلا مناص بعد هذا أن تكون الكلمة دوما بريئة ومتهمة فهي التي أوقدت نار الحرب وهي التي أطفأتها.
وهي التي خربت ديارا وهي التي بنتها.
وهي التي قتلت أنفسا وهي التي أحيت أخرى.
وهي التي أفقرت أمما وأغنت أخرى.
وهي التي رفعت بالعلم قوما ووضعت بالجهل آخرين.
وهي...البريئة في الخير... وهي المتهمة في الشر.
(ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار)[4].
وإذا كان بعد هذا من إشارة أخرى فإن الأصل في الكلمة هو البراءة والخير، وهو الأول والمتقدم وقد كانت الآية في غاية الوضوح والبيان حين قدمت

الخير أما الشر والخبث والإدانة بهما فيظل استثناء وفرعا فلذلك أخرت في الآية.

والكلمة شحنة من المعاني تبعث في الحياة وتقرر الموت وتحرك الموجودات إلى وظائفها وتيسر الإنسان لما خلق له.

وقد يراها الشاعر المبتكر سر آخر ليقول:

أيتها الكلمة أنت سر بلائي   وهمومي وروعتي وعنائي
وتحولي وأدمعي وعذابي   وسقامي ولوعتي وشقائي [5]

والكلمة هي كتلة من ماء ينزل غيث رحمة مرة وتمطر مطر العذاب أخرى ذلك أن نتيجتها فريق في الجنة وفريق في السعير ولهذا وغيره ستبقى الكلمة علامة حياة ما بقيت الشجرة رمز للحياة.

• المفردة والدلالة في منهج البحث الوصفي الوظيفي:

والمفردة هي السمة الدالة على معنى في الوجود وبحكم تعدد المعاني في الوجود تتعدد وتتنوع المفردات الدالة عليها في الوجود.

والألفاظ هي أوعية للمعاني وخادمة لها كما أشار إلى ذلك إمام البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني: ولما كانت المعاني لا تتشابه ولا تتماثل في الحياة، كانت الألفاظ على غرارها لا تتشابه ولا تتماثل وإنما توضع الألفاظ على المعاني والأسماء عى المسميات لتعرف معانيها وتمايز، بينها وبين غيرها وليضم بعضها إلى بعض في تشكيل الخطاب المفيد، وما كانت الموجودات متقونة الصنعة من الله ومتكاملة الوظائف لا متماثلتها، كانت على نسقها الألفاظ، بحيث لا ترادف فيما بينها، كما لا ترادف فيما بين معانيها.

وكأن كل مفردة فيه خلقت لمعنى خاص ودقيق من حيث لا وجود لمفردتين مثيلتين يمكن للواحدة حمل معنى الأخرى والقيام بوظيفتها كما هي، وقد أكد هذا الاستنتاج كثير من النصوص القرآنية منه قوله تعالى: (**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا**)[6] وقوله: (**لا تقولوا راعنا وقولوا أنظرنا**)[7]

وقوله: (**قد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**)[8]

وغيرها كثير في القرآن، وكل آية قد تسوقفنا على التحليل إلا أن المطلوب في هذا البحث هو واضح في هذه الآيات المذكورة والمنهج الوصفي الوظيفي المتبع في هذه الدراسة عمله هو وصف بنية اللغة وبيان وظيفتها الأساسية في الخطاب وهي الإبلاغ، والوصفية في منهجنا ليست هي وصفية سوسور، كما أن الوظيفية ليست هي وظيفية ما ترتيني إنما الوصفية تمثل بداية مرحلة أولى في البحث اللغوي عند العرب القدامى وقد تمثلها بصدق إمام النحو والنحاة - سيبويه في الكتاب - ثم تبعته زمرة من اللغويين إلى غاية القرن السادس وهو القرن الذي بزغت فيه معاني الوظيفية على يد إمام البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة).

- يقول الدكتور جعفر دك الباب: (إن دراسة تاريخ الأبحاث اللسانية العربية في ضوء اللسانيات الحديثة تكشف أن دراسة اللسان العربي مرت بثلاث مراحل هي التالي:

1- الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة.

2- الدراسة النحوية المتخصصة.

3- الدراسة الوظيفية التي بدأها الإمام الجرجاني[9]

ثم يوضح ذلك بقوله (ويظهر من هذا المسار التاريخي أن الدرسة التحليلية للمادة اللغوية للعربية قد سبقت بلورة مقولات لسانية عامة ونتيجة لذلك عكست الآراء اللسانية العربية منذ المرحلة الأولى التي اختتمها سيبويه في

(الكتاب) خصائص بنية العربية وكانت تحمل طابع الأصالة لأنها لم تطرح نتيجة اقتباس آراء فلسفية أو لسانية أجنبية، وحين بدأ الإمام الجرجاني مرحلة الدراسة الوظيفية، أكد ضرورة التقيد بقواعد النحو التي بلورها سيبويه في الكتاب، واستند الجرجاني إليها في الدراسة الوظيفية للعربية[10].

- يقوم المنهج الوصفي الوظيفي - المتبع على جملة من المبادئ الأساسية سبق ذكرها في الجزء الأول من هذه الدراسة والخاصة بالتحليل الصوتي للخطاب، وسنعتمد في هذا الجزء الثاني تطبيق مبدإ إنكار الترادف في اللسان العربي المبين الذي يظنه بعضهم سببا لتميز لغة ما وإثراء مفرداتها إذ ما يظن من المترادفات هو من المتباينات وعليه سنتابع الدلالة الدقيقة للمفردة أي كما وضعها العرب مع صواب الاستعمال أي وفق سنة العرب في توظيفها واللغة كما يقولون: وضع واستعمال، وفقه اللغة كما حدده الإمام الشاطبي في كتابه الإفادات والإنشادات هو معرفة مواضع الألفاظ وأين استعملتها العرب، لذا فجمال الشعر - برأينا - هو في إصابة الوضع وسداد الاستعمال أما ابتغاء الجمال في الشذوذ عنهما بحجة الإبداع فلا يأتين.

هندسة المفردات في الخطاب

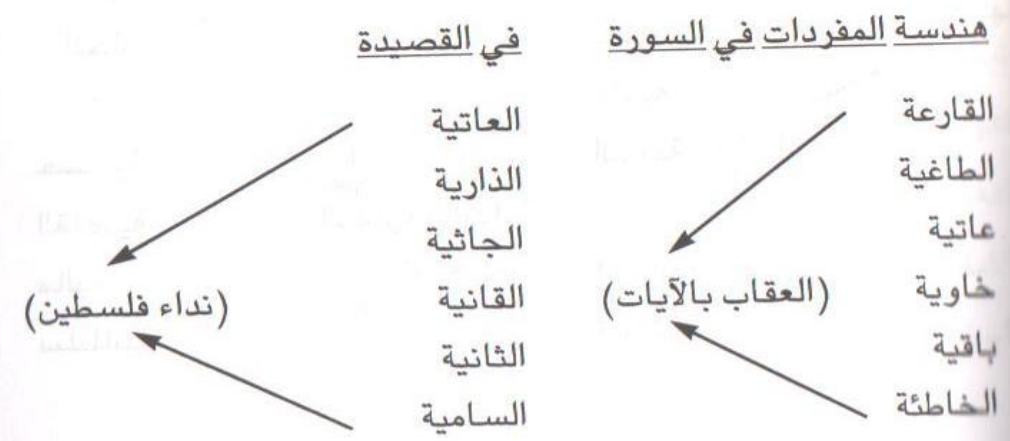

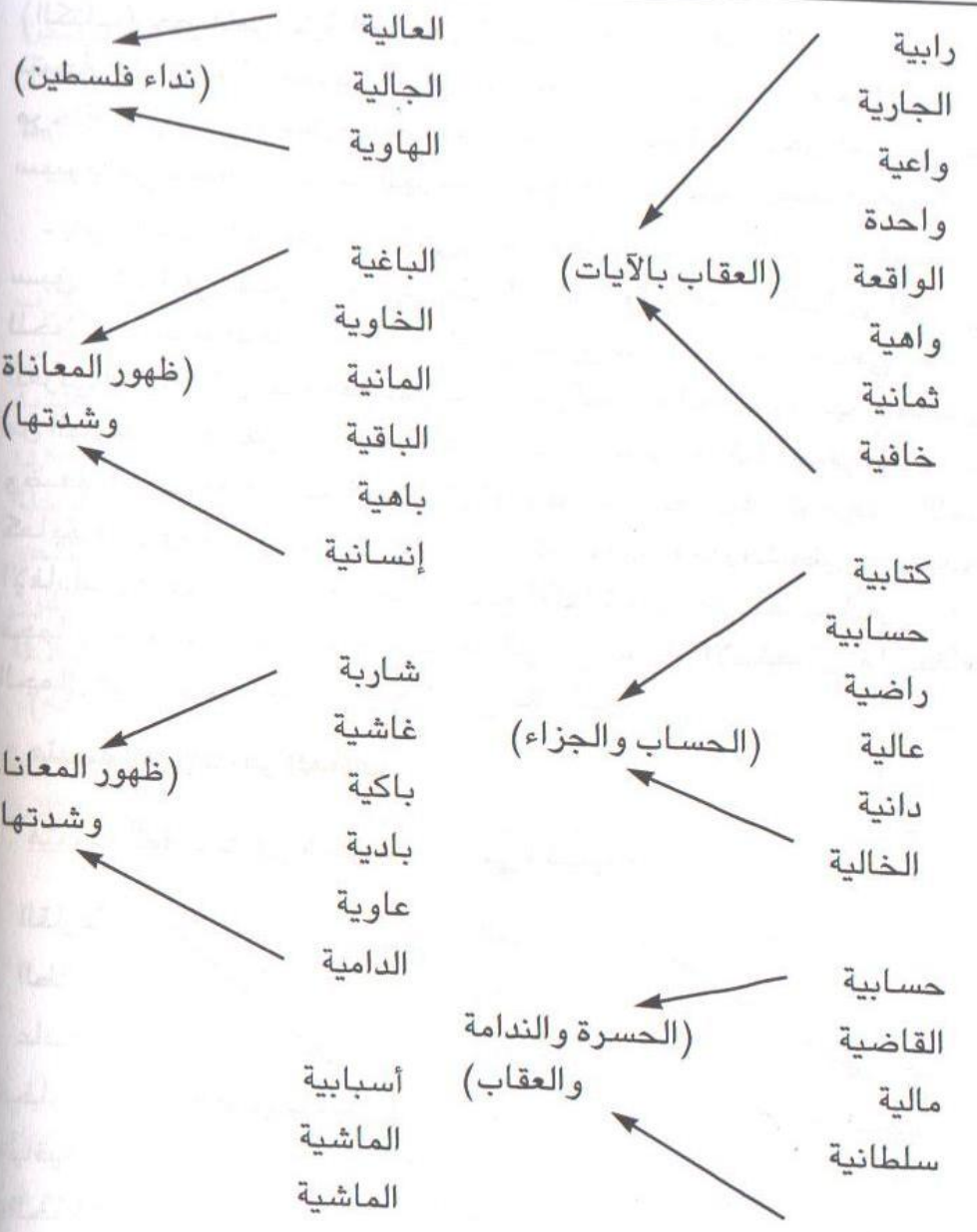
رابية
الجارية
واعية
واحدة
الواقعة
واهية
ثمانية
خافية
(العقاب بالآيات)
العالية
الجالية
الهاوية
(نداء فلسطين)
الباغية
الخاوية
المانية
الباقية
باهية
إنسانية
(ظهور المعاناة وشدتها)
كتابية
حسابية
راضية
عالية
دانية
الخالية
(الحساب والجزاء)
شاربة
غاشية
باكية
بادية
عاوية
الدامية
(ظهور المعاناة وشدتها)
حسابية
القاضية
مالية
سلطانية
(الحسرة والندامة والعقاب)
أسبابية
الماشية
الماشية

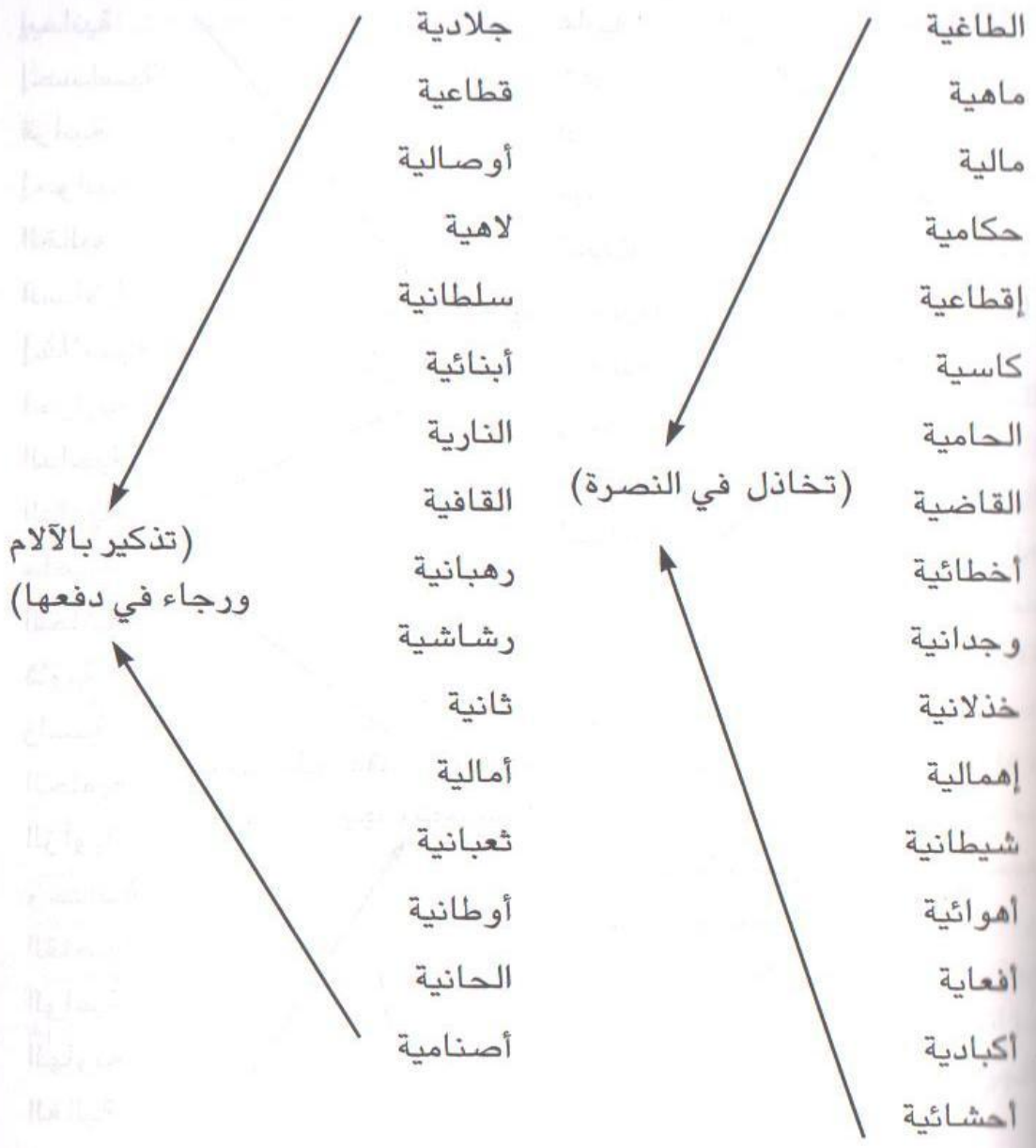
الطاغية
ماهية
مالية
حكامية
إقطاعية
كاسية
الحامية
القاضية
أخطائية
وجدانية
خذلانية
إهمالية
شيطانية
أهوائية
أفعاية
أكبادية
أحشائية
(تخاذل في النصرة)
جلادية
قطاعية
أوصالية
لاهية
سلطانية
أبنائية
النارية
القافية
رهبانية
رشاشية
ثانية
أمالية
ثعبانية
أوطانية
الحانية
أصنامية
(تذكير بالآلام
ورجاء في دفعها)

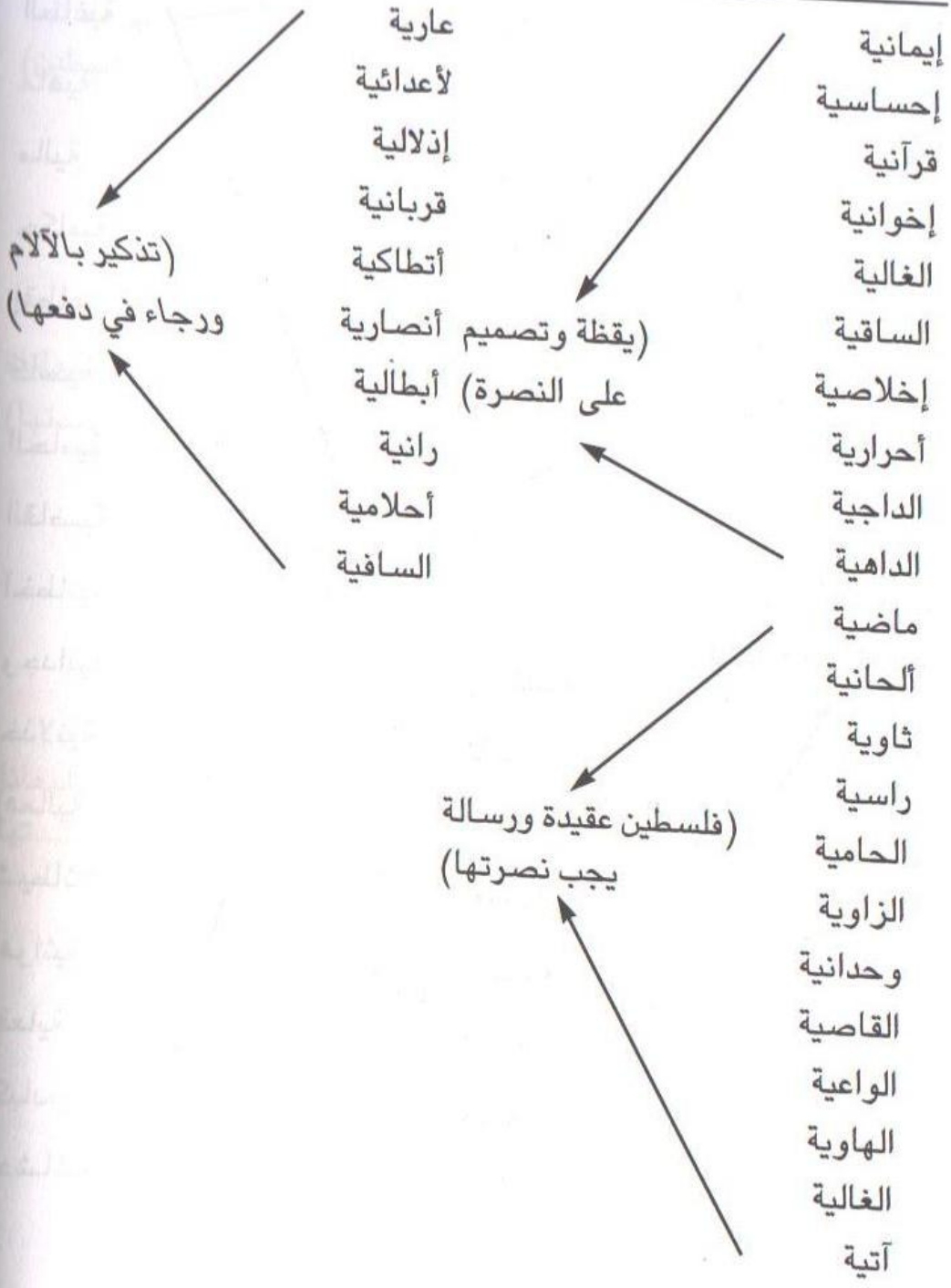
عارية
لأعدائية
إذلالية
قربانية
أتطاكية
أنصارية
أبطالية
رانية
أحلامية
السافية
(تذكير بالآلام
ورجاء في دفعها)
إيمانية
إحساسية
قرآنية
إخوانية
الغالية
الساقية
إخلاصية
أحرارية
الداجية
الداهية
ماضية
ألحانية
ثاوية
راسية
الحامية
الزاوية
وحدانية
القاصية
الواعية
الهاوية
الغالية
آتية
(يقظة وتصميم
على النصرة)
(فلسطين عقيدة ورسالة
يجب نصرتها)

لقد تعمدنا مقابلة تحليل القصيدة بالسورة (الحاقة) لاستناد الشاعر على السورة في بناء قصيدته، ثم لمعرفة نوع هذا الاستناد وطبيعته، أي هل اقتضى الشاعر هندسة السورة من أولها إلى آخرها أم أنه اقتبس المفردة منها من غير هندسة؟؟.

وهل الذي يهتم به الشاعر هنا المفردة أم المفردة وهندستها؟؟ وهو ما سيوضحه التحليل الأولي.

يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: (إذا كان كذلك فينبغي أن ينظر الى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلام إخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة. هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له صاحبتها على ما هي موسومة به، وحتى يتصور في الاسمين يوضعان لشيء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفا عن صورته من الآخر، فيكون (الليث) مثلا أدل عى السبع المعلوم من (الأسد) وهل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى ما كان تقعان فيه من التأليف والتنظيم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية أو تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن ومما يكد اللسان أبعده؟ وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جارتها وفضل مؤانستها لأخواتها[11]؟ ولا أظن الشاعر فاهما فصاحة المفردة إلا على فهم الجرجاني لها.

1- (التحليل الأول الإحصائي لهندسة المفردة للسورة) والمنطلق من نظام توزيعها.

أ- قصر مدة آيات العقاب. (5) خمسة أبيات.
- طول مدة فرعون وطغيانه وسرعة آخذه (9) تسعة أبيات
- هدوء حالة الجزاء الحسن واعتدال مدته (6) ستة أبيات
- طول مدة الحسرة والندامة من حيث لا نفع (5) خمسة أبيات
- سرعة العقاب وتنوعه (وبغير نبرة السورة المعهودة.

2. التحليل الأولي الإحصائي لهندسة المفردة في القصيدة:

- الفداء إلى فلسطين (9) تسعة أبيات
- طول المعاناة والعذاب (11) أحد عشر بيتا
- تذكير بالآلام ورجاء في دفعها (30) ثلاثون بيتا
- تخاذل عن النصرة... (16) ستة عشر بيتا
- يقظة وتصميم على النصرة (10) عشرة أبيات
- فلسطين عقيدة ورسالة يجب نصرتها (15) خمسة عشر بيتا.

أ. السورة:

• وقد تفيد - برأينا - أرقام الإحصاء والتصنيف جملة من المعاني منها: أن آيات العقاب المسلطة على العصاة والمعرضين عامة تكون مباغتة بسرعة خاطفة، وقد حصل هذا لعاد وثمود وفرعون في مقابل طول مدة الإعراض والمعصية، وقد تكون في إمهال الله القوم لعلهم يرجعون، فإذا تأكد من عدم هدايتهم خطفهم بالعقاب في لمحة من بصر أو هو أقرب، أما الذين اهتدوا فسيكرمهم بالحسنى في هدوء وسكينة وفي مدة معتدلة يرضونها لا هي بالقصيرة الخاطفة، ولا هي بالممدودة المملة، والمهتدون كما قد تدوم

فرحتهم بالجزاء الحسن فإن المعرضين والعصاة قد تطول حسرتهم وندامتهم من حيث لا نفع كما طالت معصيتهم في الدنيا من حيث لا نفع.

• وشدة عقاب العصاة والمعرضين وكبر الخزي عليهم الى حد لا يتصور ولا يدركه عقل تفيده خروج آيات العقاب في آخر السورة عن نظام قافية السورة.

القصيدة:

وقد تفيد برأينا- أرقام الإحصاء والتصنيف جملة من المعاني في القصيدة. نداء فلسطين النابع من طول المعاناة وشدة العذاب الممتد مع الأيام، رغم تذكير الشاعر الطويل بالآلام والأوجاع التي صبت على جسمها الشريف.

ودعاؤه ورجاؤه النصر، أمام كيد اليهود لها وتخاذل العرب عنها الذي طال وطال وطال إلى درجة أن قيل: متى نصر الله؟؟.

ومع هذه الخيانة وهذا الخذلان عن النصرة، يبقى الأمل قائما وشعاع النصرة قادما ليتقوى به الشاعر وينهض مرة أخرى مصمما على النصرة والدفاع عن الحق المسلوب وعلى الابن المظلوم، دون كلل أو ملل مهما كلفه طول الزمن من مشاق وأتعاب وأثقاف وأخطار في صبر واحتساب، لأن نصرة فلسطين هو نصرة عقيدة ورسالة شبرا بشبر.

المفردة بين الدلالة والوظيفة:

• **الصرصر:** قال الراغب الأصفهاني: الإصرار هو كل عزم شددت عليه وقوله (ريحا صرصرا)[12]: لفظه من الصر، وذلك يرجع إلى الشدة لمًا في البرودة من التعقد، والصرة الجماعة المنظم بعضهم إلى بعض، كأنهم صروا أي جمعوا في وعاء.[13]

العاتية: العاتو: هو النبؤ عن الطاعة... قال: فعتوا عن أمر ربهم)[14].

... (بل لجوا في عتو ونفور)[15]، (من الكبر عتيا)[16] أي حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداومتها وقوله (أيهم أشد على الرحمان عتيا)[17].

قال الإمام الزمخشري[18]: (والصرصر الشديدة الصوت لها صرصرة، وقال الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق لشدة بردها — وقوله (عاتية) شديدة العصف، والعتو استعارة أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ يجبل أو اختفاء في حفرة فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم...)[19].

من دلالات المفردة (صرصر) تظهر صورا من الآلام والمعاناة والمصائب غير العادية التي عاشها الشاعر وأن الطبيعة حتى هي الأخرى غضبت على وضع الشاعر وحاله المأساوي الذي لا يطاق وكذا حال فلسطين الذي لا يقل شأنا هو الآخر... هي

- حالة من الشعور المؤلم إلى حد القتل والخروج عن العقل هي التي يعيشها الشاعر.
- صورة الاستعمار وفعله وأثره لا يبعد عن صورة وفعل وأثر الريح الصرصر العاتية إذ هو الذي قمعه وحبسه وعذبه وجمده في السجون. وهذا هو فعل العاتية، حيث لم يجد الشاعر قوة ولا حيلة ولا سببا لصدها.

وهي الصورة التي تحمل وجهين، وجه المعاناة والآلام الشديدة ووجه الظلم والبشاعة والقسوة القاتلة التي يلبسها المستعمر ويجازي بها الأحرار، ويعفس بها على الحقوق وانسجام المفردتين (صرصر + عاتية) كان في غاية الإحكام في التوظيف والدقة في الاختيار، فلو أقررنا (بالمفردة) (الواحدة) (الصرصر) مثلا واكتفينا به لرسم هذه المعاني المصورة لقصرت ولعجزت كما أن مفرة (العتو) وحدها لا تطيق.

فالصرصر وحدها قد تفيد معاني البرودة القاسية والقاتلة، وإلحاق صفة (العاتية) بها يعطي دلالات أخرى، على رأسها الظلم البشع والقوة الكبرى التي لا ترحم ما في الأرض ومن في الأرض. فالمستعمر في نظر الشاعر جاء

كالريح العقيم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم (كالريح العقيم التي ما أتت على شيء إلا جعلته كالرميم، مثل ذلك فعل المستعمر).

ولعل انتقاء المفردة (الصرصر - العاتية) الحاملتين هذه المعاني جاء منسجما دلالة وقوة مع طبيعة السلوك والأخلاق التي كان عليها قوم عاد من استكبار على الله وعتو في الأرض جعل الرسول والرسالة ينفيان من الأرض التي بعث إليها، فكما الفعل الجزاء وكما الجريرة العقاب، فكان عقابهم بالصرصر العاتية، فكذلك صورة الشاعر (الرسول والرسالة) والمستعمر (الصرصر العاتية) ومع ذلك لم يتوقف نداء الرسول لا صوت ودعوته الراسخة.

واستخدام القرآن الكريم لمفردتين الصرصر والعاتية هو من باب الحقيقة لإبراز قوة الله وعظمته واستخدام الشاعر لمفردتين (الصرصر) و(العاتية) هو من باب المجاز والاستعارة التي هي من مقتضيات النظم، كما أشار إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني وضعف الإنسان وشدة احتياجه لهذه الآداة مجازا.

وتبرز هنا فكرة جديدة هي دور الطبيعة وأحوالها الساكنة والمتحركة (العالم المحيط بنا) في صناعة اللغة وتجلية المعاني قوة وضعفا فلو لم يجد الشاعر ظاهرة الصرصر العاتية في الوجود والطبيعة فما عساه أن يقول لتجلية المقصود في هذا الحال؟؟؟ وبعد هذا فهل اللغة إلا عالم متطوق لعالم مشهود؟؟؟

- كما تفيدان أن قوة المستعمر وعظمته التي لا تحركها إلا آية العقاب العظمى حيث لا تبقي ولا تذر وليس إلا الصرصر العاتية كما كان صرصرا عاتية على المساكين الأحرار.

- والصرصر كمفردة لا تقبل مفردات صفات كالباردة أو القاتلة، لأنها مواصفات مضمنة فيها أي تفهم من خلال النطق بها، فضلا عن أن المفردة لم يصلح لها هذا الاسم ولا بوجود هذه المواصفات.

لذا وجب البحث عن مواصفة تزيد في عظمة وشراسة الصرصر لتخرجه من دائرة الطبيعة إلى مساحة العقوبة أي آية العقاب، وهنا لابد من مفردة العاتية ولتكتمل بها صورة الظاهرة العقاب المتميزة والمنسجمة مع حجم جرم القوم المعتدين (عاد)، ومفردة العاتية تفيد في المقابل وجود صرصر طبيعية في الحياة غير عاتية وغير مهلكة وعليه فوظيفة المفردة الصفة تذهب إلى التخصيص من العموم، والتمييز من المعروف ويكون هذا لعدة مقاصد والمقصد هنا واضح إذ يفيد تجلية العظمة الحارقة كآية من آيات الله وكآلة من آلات العقاب للمعتدين، فهي ثابتة فيهم غير واقعة في غيرهم، فإذا قلنا الرجل المريض تفيد لزوم صفة المرض في شخص الرجل من حيث خروج هذه الصفة عن باقي الرجال، فهم أصحاء.

الذارية: قال الزمخشري: (الذاريات): الرياح لأنها تذرو التراب وغيره، قال تعالى (تذروه الرياح)[19] وقرئ بادغام التاء في الذال.

• **جاثية:** جاء في القرآن الكريم (وترى كل أمة جاثية)[20]

أي باركة مستوفزة على الركب، وقرئ جاذية، والجثو أشد استيفازا من الجثو لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه[21]. عن ابن عباس رضي الله عنه: جاثية مجتمعة ومن معاني مفردة (الجاثية) كما يقول صاحب تفسير الخازن (باركة على الركب وهي جلسة الخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، وجثا فلان يجثو إذا جلس على ركبته وقيل مجتمعة[22]

وما من شك في أن يكون الشاعر قد أخذ اللفظ ومعناه من هذا النص القرآني والمفردة في حس الشاعر ترسم في المخيلة صورة لأعداد كبيرة من جماجم القتلى الأبرياء الذين عفسهم المستعمر وقتل حريتهم جملة واحدة لنقرأ بالحقيقة كبر الجرم وبشاعة الفعلة الحمراء التي طال بها الزمن وامتد الأمد بعيدا دون أن يتوقف من جرمه، وما يفيد هذا قول الشاعر (جماجمها) والجمجمة في حس القارئ تحمل معاني كثيرة فبالإضافة إلى جريمة القتل

هناك معنى قدم عهده بهذا الجرم، إذ هو لم يتوقف عنه أبدا منذ زمن الاحتلال الأول، وقد يعود الى مائة سنة أو تزيد، وأعدادها أكثر من أن تحصى، هل التزم الشاعر نظام السبب والنتيجة الواردة في القرآن.

وعادة الرياح هي التي تذرو الأشياء لكن لضرورة الموقف وبشاعة جريمة المستعمر في التاريخ، وجدنا الشاعر يستبدل مفردة الرياح التي عادة تحمل الخير واللطف بمفردة (العواصف) الحاملة لمعاني الشدة والقوة والهول والموت والدمار، فصارت تذرو الأبرياء هنا وهناك كما تذرو الرياح الأشياء هنا وهناك.

ويلاحظ على المفردات الثلاث المسخدمة أنها كانت منسجمة مع نظام السبب والنتيجة اذاً العاتية أولا والذارية ثانيا والجاثية نتيجة.

وهو الذي كان ينبغي أن يورده الشاعر بعد ذكر الصرصر العاتية وليس إلا معنى الموت بالصورة البشعة في حق الأبرياء، لو ذكر معاني الحياة بعد مفردة (العاتية) لم يحكم شعره وهو النمط الذي أخذه من نظام سورة الحاقة حين أورد القرآن مفردة (الصرر العاتية) ثم أتبعها (بالشكل الزمني الذي دامت فيه) ثم أنهاها بالنتيجة الحتمية وهي الموت والنهاية الخاسرة، مقبولة (فهل ترى لهم من باقية)[23]

ولعل طول مدة الاستعمار ودوام ظلمه وجرمه في حق الأبرياء إلى حد الأجل غير المسمى جعل من الشاعر يختار الصيغة الصفة الفاعلة التي تفيد الحصول والدوام وانعدام ارتباطها بالزمن ليحصل التوافق والانسجام والإحكام بين دوام الظلم واستمرار الجرم مع دلالة الصيغة والميزان الصرفي للمفردة.

الصفة الفاعلة: يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: "إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء"[24].

وفي بيان الفرق بين الخبر والصفة المشبهة يقول ممثلا: (... فانظر الى قوله تعالى: ~ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد~[25] فإن أحدا لا يشك في امتناع الفعل ههنا وأن قولنا (كلبهم يبسط ذراعيه) لا يؤدي الغرض وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل، ومعنى يحدث شيئا فشيئا ولا فرق بين (وكلبهم باسط)، وبين أن تقول:(وكلبهم واحد) مثلا. في أنك لا تثبت مزاولة، ولا تجعل الكلب يفعل شيئا بل تثبته بصفة هو عليها. فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب[26]

كل هذا يذهب إلى أن دلالة المفردة الصفة الفاعل تفيد الحصول والاستمرار، والدوام لذلك كانت الصيغة محكمة مع طبيعة الموضوع والمعنى المقصود والشاعر في وسط هذه الأهوال والعواصف وأزير الوغى تقلبه وتعذبه وتقتله لا ينسى فلسطين مهبط الأنبياء ولا يغيب عن ذهنه طرفة عين القدس الشريف الذي يعيش هو الآخر مشاعر وأحاسيس الشاعر الأليمة... وينادي فلسطين (في الصرصر العاتية) وأنظر كيف يحصل الانسجام بين (النداء) الصوت المرتفع للشخص البعيد ومفردة (الصرصر) التي تفيد شدة الصوت (العاتية) التي تفيد شدة العصف مع الصفير.

ولما وصل الشاعر إلى أرض الوغى ورأى الجماجم الجاثية في صمت رهيب ومخيف لم ينس فلسطين فراح يدعوها والدعوة عادة ما تتم بالصوت الهادئ الخافت انسجاما مع الموقف والحال، ثم ينتقل إلى الخافت فيستعمل فعل (أذكر) وهو ترتيب محكم بين أفعال ثلاثة تحمل معنى واحدا قريبا وتتضمن هما مشتركا فمن النداء إلى الدعاء إلى الذكر، وهو يعني تدحرج الصوت من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى أي من الصائت إلى الخافت إلى الصامت.

ـ فكأنه كان بعيدا عنها فجعل يناديها ثم اقترب منها فجعل يدعوها ثم دنا منها فجعل يذكر جرحها، ثم اقترب منها فصار يتحدث إليها مباشرة ابتداء من البيت الرابع حيث قال:

(فلسطين يامهبط الأنبياء ويا قبلة العرب الثانية)

وهو تنازل طبيعي في حكم الأشياء فبعد الصوت الصمت، وبعد الصمت التذكر ونتبع مع الشاعر هندسة مفردات القافية وهو على عتبة فلسطين مهبط الأنبياء وقبلة المسلمين الأولى، وكان لزاما عليه إجلالها وتعظيمها بحكم رؤيته الأولى لها، باستخدامه مفردة (الثانية) و(السامية) و(العالية)، هو تناسق معتبر وطبيعي يحصل لكل رؤية بشرية في اللحظات الأولى قبل أن يعتريها الأسى وتتسلط عليها المآسي لتنتقل في لحظة من الفرحة الى البكاء، ولعل مرد (استعمال) المفردة (الثانية) بدل الأولى بحكم أن القدس قبلة المسلمين الأولى كما يرجع إلى عامل الوظيفة فالكعبة الشريفة بالوظيفة هي اليوم قبلة المسلمين الأولى لتصبح القدس الشريف القبلة الثانية لا تظن الشاعر أخطأ في هذا الموضع.

وتنتهي الفرحة في لحظة وينتهي مع الإجلال ويحل محلها الأسى والحزن لحالة تدمي القلوب وتذرف الدموع.

ولما كانت الفرحة حالة شعورية تسمو بالنفوس الى العلا، انسجمت معها مفردات (السامية) و(العالية) ولما كان الأسى والحزن حالة شعورية تنزل بالنفوس إلى السافلة انسجمت معها مفردات (الهاوية)، (الجالية)، (الخاوية)، (الباقية)، (باكية)، (بالية)، (عاوية)...

وفي ترتيب هذه المفردات نلمس شيئا من الانسجام فمثلا مفردة (هاوية) تقود إلى (خاوية) حيث لا يهوي إلا الخاوي وهذه تقود الى ← (الباقية) وهي ليست إلا مما تبقى من الأشياء وأعني فضلاتها وهذه تقود عند اشتداد الأسى الى مفردة (الغاشية).

ومنه إلى حالة انفجار النفس بالبكاء في مفردة (الباكية)

- وينتهي المشهد الأول مشهد الشاعر يجاور فلسطين وقد تضمن عشرين بيتا ويبدأ المشهد الثاني مشهد فلسطين تجيب الشاعر، فإذا كان الشاعر أبكانا

في المشهد الأول فإن مع فلسطين وهي تحاوره سيكون البكاء أشد وأمر وللأوصال أقطع وشتان بين لغتين لغة تصف الحال وبين حال ينطق اللغة.

ويحصل التجاوب بين مفردتين (أذكر) و(ذكرتني) حين قال الشاعر.

وأذكر جرحك في حربنا وفي ثورة المغرب القانية

وحين أجابت فلسطين:

أيا شاعر العرب، ذكرتني وهجت جراحاتي الدامية

وهو تجاوب في قمة المنطقية والدلالية إذ نلحظ الانجذاب والتعانق والتعلق والتولد بين المعنيين، بل المفردتين بل البيتين واضحا وصريحا، ومهما بلغ وصف الشاعر لحال فلسطين روعة وفصاحة لا يرقى إفصاح فلسطين عن حالها وجراحها إذ ليس من ذاق، كمن تاق، وتشرع فلسطين تفصح عن حالها في غمرة من الأسى والألم المبكي والوجع القاصم وهي مغلولة بأيدي السفهاء وأقذار البشرية، وهي إذ تبكي لا تبكي بغيهم وطغيانهم وفسادهم، فذاك معهود فيهم منذ الزمن الأول، إذ قد صنعوا جرائم القتل البشعة في الأنبياء والتاريخ أكبر شاهد، لذا فظلمهم لفلسطين أمام ركام الجرائم في حق الرسل والأنبياء والعلماء المسلمين قد يبدو أمرا طبيعيا غير غريب ولا مفزع، واليهود خلقوا للشر أينما كانوا: (كلما أوقدوا نارا للعرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين)[27] وفلسطين أعطاها الله من القوة ما تصبر حتى تنتصر (إنما النصر مع الصبر)، ولكن الذي تهتز له الدنيا وتتقطع له الأوصال، وتحزن له القلوب وتدمي وتبكي له العيون وتعمى هو قعود العرب عن نصرتها، ليس قعود عجز، بل قعود سكر، وغي وعمى وخداع لا ينفع معه الشعر ولا الخطب النارية، هو القعود الذي ضيع عزتها وشتت في الأرض أوصالها، وداس أمام الملإ كرامتها فما عساها تعمل سوى الانتفاضة من القوم والتبرؤ من صنعهم المخزي والتوجه بالنداء إلى عدل السماء.

وفي هذه الوقفة المؤلمة كان لمفردات هذا المشهد دور في تجسيد حقيقة الحال وتحقيق تعميق الجرح الدامي دلالة وهندسة وانسجاما.

وتبدأ الصورة بمفردة (الدامية) التي تفيد غزارة الضربات من كل الجهات، ففلسطين مجروحة في كل جسمها جروحا دامية، فالحال خطير وإشارات الموت تلوح في الأفق إن لم يتدارك الراشدون الموقف الى الإنقاذ والإنقاذ السريع، وكان لزاما على المجروح أن يفترش الأرض طريحا لا حول ولا قوة له مستسلما لما ينتظر بعد الطرح وليست اللوحة هنا إلا كصنيع ابن آوى بالفريسة الدامية، تقطع عن قطيعها أولا فكانت مفردة أسبابية مناسبة لوصف الحال، ثم تليها عملية السلخ لتكون أشبه بالماشية في أيدي جزارها، لذا وافقت الحال مفردة (الماشية) لتصبح فلسطين في كف الجلادين، لتصلب وتعلق كما تصلب وتعلق الماشية، لذا ناسبت في التتابع مفردة (جلادية)

ثم تتابع المفردات في نفس المعنى والوزن والفعل الشنيع المنتظر منها (قطاعية) (أوصالية) وكلها مشحونة بآلام وأوجاع وأسى لا يطاق وما سيحصل بعد هذا الحال هو نهب القطاع وتشتيت الأوصال، كل هذا سببه لهو قومها عن محنتهم، وسكرتهم التي ضيعت عزتها فكان على المفردات الموالية أن تفصح عن سبب الحال ومنها (لاهية) لهو السكرة التي ضيعت (سلطانية)، وفي هذا الحال يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ويتجلى على لغة الحديث الحقيقة، إلى لغة الحديث التي زادت في تعميق الآلام والأوجاع فتتابعت المفردات (الشعر)، (الخطب النارية)، (القافية)، (الدعوات)، (رهبانية) و(الصلاة)، يقول:

"فما عساها ترد الصلاة إذا أسكت العرب رشاشية"

وإذا فلسطين تركت الأمر على حاله فلن تعرف حياة ولن تذوق نصرا مؤزرا يبقيها عزيزة مكرمة. وإذا عليها أن تثور لنفسها معتمدة على يدها، فماحك

جلدك مثل ظفرك - متأسية بثورة الجزائر المجيدة التي خرجت إلى الشارع فاحتضنها الشعب، فحقق أمالي النصر وسحق المستعمر، وحرر الوطن وأعاد البسمة الى الوجود ومسح العار على الجبهة ورفع علم السيادة والعزة والكرامة في الديار.

وفي هذا المعنى تتتابع المفردات التالية بانتظام وتناسق وهي: (آمالية)، فسحقت (ثعبانية)، وحررت (أوطانية)، وأعلنت... (الحانية)، وحطمت (أصنامية) وهي مفردات أكثر علقة بالعدو المغتصب (اليهود)، وفلسطين بذكائها وعزيمتها تعرف جيدا من هو عدوها الحقيقي، وفي الحال تجزم بمقاومة اليهود الغاصبين و العرب السماسرة المخذلين. وعليها إذا كما ثارت على الأول، ستثور بأشد على الثاني، وتتموقع المفردات منسجمة لأداء المعنى وهي: عينا (لأعدائية) وسببا (لإذلالية) (قربانية)- فأعادت بذلك مجد الأوائل ورسمت على الصفحة البيضاء ثمرة العز وشجرة الكرامة، مرة أخرى وتسير المفردات انسجاما لأداء هذا المعنى المحتم والملزم، لأن المقصود هذا الجهاد كله سيصب في وعاء إعادة المجد والعزة المسلوبتين.

وتستمر في التسيير بانتظام وانسجام وتعانق وفرحة غامرة المفردات العامرة بالتاريخ المجيد والمشحونة بصفاء الإيمان وقوة العقيدة، وهي (أنطاكية) (أنصارية) (أبطالية) ويحتم المعنى بهذا المسك - (أخذة رابية).

وتقف فلسطين بعد النصر معتبرة لتقول للوجود والوجوه (فاعتبروا يا أولي الأبصار)[28] وأن الشعب هو وحده الذي يحقق لأمته النصر (أحلامية)- وهو وحده الذي يصد الظلم ويقهر الظالم بأعاصيره (السافية) ← وهو وحده تلقف عصاه ما يأفك (الطاعية). وهناك وقع الحق وانقلبوا صاغرين.

وبعد الانتفاض والتبرؤ من ابن يعرب المخذل، هاهو ينهض من نومه ويصحو من سكره ويكشف عن سوأته غير دار ومجيبا بمفردة (ماهية؟؟) التي تفيد كل شيء إلا الصمود والجهاد والنضال... وتحمل كل القراءات إلا

قراءة العزة والكرامة، وليقس ما لم يقل... ولما كانت السكرة فسادا للعقل كانت أفسد للمال، لذلك لم يفدهم غناهم فكان بالتبع والضرورة والمنطقية والانسجام أن تكون مفردة (مالية) من سياق (ولم يفدني في القضاء مالية) ويتضاعف الألم ويشتد الأسى حين ينتقل التخذيل والخذلان والقعود عن النصرة والاستسلام الذليل من (ابن العرب) إلى (حكامية) و(إقطاعية) و(الطاغية) (الكاسية)، وهي مفردات في غاية الدلالة الواصفة وفي غاية الإحكام والانسجام مع معاني القعود عن النصرة والخيانة للثورة المجيدة.

وأمام هذا التضاعف في الألم وهذه الحسرة الكبرى اعترف أنه كان سببها فركبه الندم حين لا ينفع الندم، وهذه الدلالة وهذا الانسجام تكشف عنهما المفردتان (الحامية) ومن سياقه (لم أطف نيرانها) و(القضية) هي المفردة القرآنية المفعمة بمعاني الحسرة والخسارة الكبرى التي لا كفارة لها وحياة وراءها. ومع ذلك لم يهدأ له بال. ويقوم الضمير يؤنب بشدة الى حد اللعنة الخفية التي لا تنساها السماء ولا يهملها الدهر، فينهض ويعترف بذنبه المجترح، ويفصح عن الحقيقة ويعدد الأسباب الكامنة فيه التي تفصح عن معانيها المفردات التالية في تتابعها وانسجامها وهي:

(خذلانية) ← (إهمالية) ← (شيطانية) ← (أهوائية) ← (أفعالية) وينتقل الشاعر من ذكر السبب إلى بيان الحصاد المر الذي كان نتيجة حتمية، وكان أمرا طبيعيا ومنتظرا، إذ لا (نجني من الشوك العنب) مجسدا في مفردة (أكبادية) من سياق (يفتت في الأرض البادية)، ومفردة (أحشائية) من سياق: (تقضم أفعاه أحشائية). وهما مفردتان معبرتان تماما عن شر نتيجة، بل أين ذكرتا دلت على عظم البلاء وشر الجزاء في الدنيا.

وأخيرا كما اعترف بأسباب الهزيمة وعواقب القعود عن نصرة فلسطين، شرع في بيان عوامل النصر الثا بتة في تاريخ معارك الحق مع الباطل. وهي واحدة غير متبدلة ولا متغيرة، لتفصح عنها بانتظام وانسجام ودلالة

المفردات التالية (إيمانية) ← (قرآنية) ← (إخوانية) ← (الغالية) من سياق (ثورة الجزائر) ← (إخلاصية) ← (أحرارية) .

وأمام هذه المرارة غير المتجرعة وفي هذا الحال المخزي واليأس المحيط لا يسكت شاعر الجزائر، وحالا يدخل أرض المعركة لإنقاذ الموقف وتخليص فلسطين من الثعبان القاتل ومن الأفعى القاطمة، وذلك بنقل تجربة الجزائر الى فلسطين والنهوض الى نصرتها. ويظهر ذلك بجلاء في معاني المفردات المتتابعة التالية:

(الأبية) ← (ماضية) ← (ألحانية) ← (راسية) ← (الحامية) ← (الزاوية) ← (وحدانية) ← (الواعية) ← (الغالية) ← (آتية).

وكلها مفعمة بمعاني النصر والمستخلصة من ثورة الجزائر الدامية التي انطلقت بصعود (الرابية) ← وانتصرت بالساعة الآتية.

البداية:

1– أنا ابن الجزائر... من أمة

على دمها، تصعد الرابية

النهاية:

2– ولن يخلف الله ميعاده

ولا ريب.. ساعتا، آتية!

الخاتمة

وبعد فليست هذه الدراسة سوى وقفة خاطر ونظرة من زاوية ورؤية اجتهدت في تحليل خطاب شعري من جهة المفردة القافية بعدما وقفت عليها من جهة قافيتها التي أفرزت أن نظام القصيدة العام يتجه في خط تتابع الآلام

وتصاعد الأوجاع وانحصارها عند صوت (الياء) ثم انفراجها بصوت الهاء (يه)، وقد فعل الشاعرذلك تشبها بفاصلة سورة الحاقة التي تسير بالتقريب وفق هذا الخط والنظام، وهو ما يؤكد فهم الشاعر حقيقة الرسالة، وأي رسالة هي؟؟

– (رسالة الشعر في الدنيا مقدسة لولا النبوءة كان الشعر قرآنا)[29].

وما تفيد هندسة المفردة القافية في القصيدة بناء على الإحصاء ومن هذا التحليل هو سيرها في خط تتابع الآلام وتصاعد الأوجاع واشتداد المعاناة وامتدادها في الزمن إلى أعلى قمة الشدة الممثلة في الخذلان والقعود عن النصرة ثم نزول الانفراج وعودة الأمل والنهوض إلى النصرة. باعتبار فلسطين عقيدة ورسالة ونصرتها من نصرة الله.

(إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[30] وفي هذا الاتجاه الواحد يتآلف كل من صوت القافية والمفردة القافية، ويتحركان نحو خدمة الموضوع الواحد فكما مع العسر اليسر فكذلك مع الحبس النفس، ومع الصبر النصر.

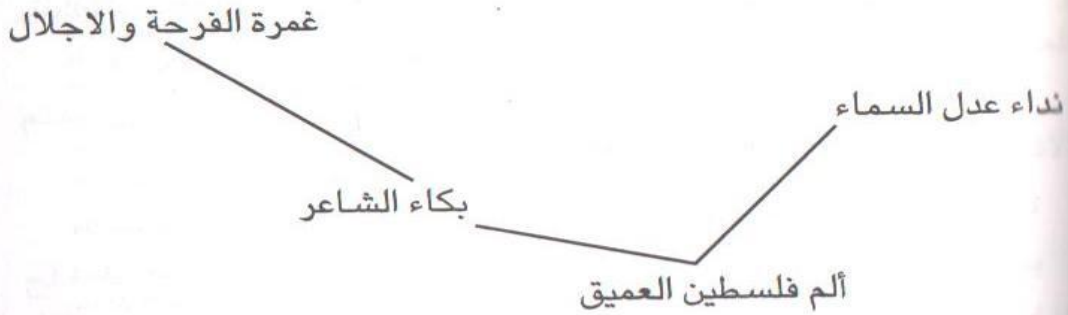

هوامش الدراسة

1ـ إبراهيم 24.
2ـ التوبة 40.
3ـ المؤمنون 100.
4ـ إبراهيم 24.
5ـ ديوان ـ أبي القاسم الشابي مؤسسة الرسالة
6ـ الحجرات 41.
7ـ البقرة 104.
8ـ الأعراف 129.
9ـ نحو نظرة جديدة الى فقه اللغة ـ أ. د جعفر دك الباب ص (24) الأهالي للطباعة والنشر ـ 1989 دمشق.
10ـ نحو نظرة جديدة الى فقه اللغة ـ أ. د جعفر دك الباب ص (24)
11ـ دلائل الإعجاز عبد القادر الجرجاني (ص 43 ـ 44) مطبعة المدني ـ القاهرة ـ تحقيق محمود محمد شاكر.
12ـ الحاقة (06)
13ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن ـ الراغب الأصفهاني (ص 267 ـ 268) دار الكتاب العربي
14ـ الأعراف 77
15ـ الملك 12
16ـ مريم 07
17ـ مريم 69
18ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن الراغب الأصفهاني ص 333 دار الكاتب العربي
19ـ الكشاف ـ الزمخشري ـ ج4 ص 149 ـ 150 دار الفكر
20ـ الكشاف ـ الزمخشري ـ ج4 ـ ص13 ـ دار الفكر
21ـ الجاثية 28
22ـ الكشاف ـ ج4، ص 513، دار الفكر
23ـ الحاقة 23
24ـ دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص 175
25ـ الكهف 18
26ـ دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص 175
27ـ المائدة (64)
28ـ الحشر 03
29ـ اللهب المقدس ـ ديوان مفدي زكرياء ص 336 المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر
30ـ محمد 07

مصادر ومراجع البحث:

1ـ القرآن الكريم ـ برواية ورش عن نافع
2ـ دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني مطبعة المدني ـ القاهرة ـ تحقيق محمود محمد شاكر
3ـ معجم مفردات الفاظ القرآن ـ الراغب الأصفهاني دار الكتاب العربي
4ـ اللهب المقدس ـ مفدي زكرياء المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر
5ـ ديوان أبي القاسم الشابي ـ مؤسسة الرسالة
6ـ نظرة جديدة الى فقه اللغة الدكتور دك الباب.